جغرافية النقل ودورها في رسم الخريطة الثقافية والحضارية لحوض المتوسط

Geographical transport and its role in drawing the cultural and civilizational map of the Mediterranean Basin

د. شيخاوي سنوسي[1]

[1] جامعة ابن خلدون – تيارت –(الجزائر)، snouci.chikhaoui@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2023/03/29 **تاريخ القبول:** 2024/01/10 **تاريخ النشر:** 2024/03/28

ملخص: يعتبر حوض البحر المتوسط ملتقى الثقافات و مهبط الأنبياء والديانات الثلاث؛ اليهودية، النصرانية والإسلام فكان منذ فجر التاريخ ممرا للهجرات ومهدا للحضارات الإنسانية حيث نمت و ترعرعت على ضفافه حضارات شتى، من الحضارة الفرعونية في مصر إلى حضارة الإغريق واليونان ، مرورا بالحضارة الرومانية فالحضارة العربية والإسلامية وصولا إلى الحضارة الأوروبية الغربية الحديثة. وقد شهدت منطقة حوض البحر الابيض المتوسط فترات من السلم وأخرى من الصراع والحروب، تداولت خلالها الحضارات السابقة على قيادة العالم القديم قبل اكتشاف أمريكا، والمنطقة شاهدة اليوم على التغيرات الكبيرة التي طرأت سواء على المستوى الثقافي او الاجتماعي وحتى السياسي مشكلة بذلك فسيفساء حضارية متداخلة الابعاد و تنوع ثقافي خصب ما كان كلاهما ليتحقق لو لا حركة النقل و التنقل بين ضفتي المتوسط عبر العصور.

الكلمات المفتاحية: جغرافيا النقل، الخريطة الثقافية، الخريطة السياسية

Abstract :

The Mediterranean basin is considered the crossroads of cultures and the birthplace of the prophets and the three religions. Judaism, Christianity Islam was, since the dawn of history, a passage for migration and a cradle for human civilizations, where they grew and flourished On its shores are various civilizations, from the Pharaonic civilization in Egypt to the civilization of the Greeks and Greece, passing through the Roman civilization, the Arab and Islamic civilization, down to the modern Western European civilization. Before the discovery of America, the region is witness today to the great changes that took place, whether on the cultural, social or even political level, forming a mosaic of overlapping civilizations and fertile cultural diversity.

Keywords: Transport geography, cultural map, political map

المؤلف المرسل: د. شيخاوي سنوسي، **الإيميل**: snouci.chikhaoui@univ-tiaret.dz

1.مقدمة:

من المؤكد ان التفاعل بين الشعوب والمجتمعات القائمة بين ضفتي المتوسط ليس وليد اليوم، فقد شَكَّلَ حوض البحر الأبيض المتوسط عبر العصور، فضاءً للتبادل والتداول والتنقل بين الشعوب، بدءا بالفينيقيين والإغريق القادمين من الشرق لتأسيس مراكز عديدة لهم على الشواطئ الإفريقية، كما على ضفة الشمالية بإيطاليا، ومنذ العهد الروماني وحتى غاية نشوء الدولة العثمانية، كما أن إمبراطوريات عديدة بسطت نفوذها الذي امتد أحيانا إلى عمق القارات الثلاث المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، آسيا، إفريقيا وأروبا.

كما أن التفاوت بين ضفتي المتوسط في جوانب مختلفة قد أسس لبيئة يحكمها الطرد والجذب، بدءا بمعدل الدخل الفردي الذي يمثل في الشمال أضعاف ما يحصل عليه الفرد في الدول المطلة على المتوسط جنوبا، ثم التمايز الكبير في حجم الاقتصاديات وصولا الى الاختلاف في الجوانب الاجتماعية (الهجرة، البطالة والعنف...) ضف إلى ذلك التفاوت في النمو السكاني، حيث تؤكد كل المؤشرات عمق الفجوة بين شمال وجنوب المتوسط.

من جهة ثانية يعتبر المتوسط منطقة جذب للهجرات منذ القدم، فقد جاءت الفتوحات الإسلامية بالمنطقة لتكشف عن الأهمية التجارية لحوض المتوسط، أين تم في عهد العباسيين إلى فكرة ربط البحر الأحمر بالأبيض من خلال شق قناة تربط البحرين لتسهيل حركة التجارة، وهذا بدوره شكل جسرا لتنقل الأشخاص عبر موجات متلاحقة(السيد عدنان،2006، 75) هذه التنقلات أدت إلى تغيرات في الحدود الثقافية والحضارية والسياسية في العالم بصفة عامة، وفي حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة خاصة، نحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على الإشكالية التالية:

ما دور حركية النقل والتنقل بين ضفتي المتوسط في تشكيل الفضاء الثقافي والحضاري في المنطقة؟

2.حوض البحر الأبيض المتوسط:

البحر الأبيض المتوسط هو البحر الذي يتوسط القارات الثلاث: إفريقيا، أوروبا و أسيا و قد أطلق عليه الرومان عندما كانوا في أوج قوتهم اسم Mare Nostrum و يعني بحرنا و الاسم المعروف به الآن

مشتق من كلمتين لاتينيتين هما ميدياس ((Medius المتوسط، و تيرا Terra أي الأرض (كتاب المعرفة، 2)

وبعد شق قناة السويس سنة 1869 اصبح البحر الأبيض المتوسط يكتسي أهمية خاصة، حيث تحولت تسميته la Méditerranée)) بالفرنسية و يقابلها اسم (the Mediterranean) باللغة الإنجليزية خلال الفترة الفاصلة بين القرنين 18م و 19م، وتبلغ مساحته 2966000كلم^2.هذا و يمكن أن نضيف إلى الحوض المتوسط كل من البحر الأسود الذي تبلغ مساحته 508000كلم2 الذي يعتبر امتداداً له، وبحر مرمرة الرابط بينهما الذي تبلغ مساحته 1400كلم2 ،^{2}فتصبح المساحة الكلية للبحر المتوسط 475400كلم، والحقيقة أت حوض البحر الأبيض المتوسط يتكون من حوضين غربي وشرقي بفعل الخناق الموجود بين جزيرة صقلية و تونس.(مخيمر،1997، 42)

يتميز البحر الأبيض المتوسط كذلك بخاصية جيولوجية لها تأثير على أهميته الاستراتيجية وتتمثل هذه الخاصية في وجود نقاط الخناق التي تسمح بمراقبة الممرات البحرية والجوية كمضيق جبل طارق غرباً، والمضائق التركية البوسفور والدردنيل شرقاً، وقناة السويس جنوباً، إضافة الى نقاط أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها هي: مضيق صقلية بين جزيرة صقلية شمالاً و تونس جنوباً، ثم مضيق مسينا بين شبه الجزيرة الإيطالية و صقلية.

والفضاء المتوسطي هو ما يطلق عليه اليوم الحوض المتوسطي تطل عليه: من الشرق سوريا، لبنان، فلسطين المحتلة، ثم من الجنوب: مصر، ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب، ومن الشمال: دول الاتحاد الأوروبي إضافة الى تركيا، ألبانيا ويوغسلافيا، اما الجزر: قبرص ومالطا (صارم، 2000، 171)، ويشكل هذا الفضاء 6%من اليابسة و7%من سكان العالم (حوالي 240مليون نسمة في جنوبه و187مليون نسمة في شماله) (تومي، عدد 10). ويبقى الإشكال قائما بخصوص مدى متوسطية بعض الدول التي لا تستفي شروط المعيار الجغرافي الذي يعتبر أن كل دولة تطل ولها منفذ بحري هي دولة متوسطية، رغم أن المعيار الاستراتيجي يدفع الى توسيع دائرة الحوض ليشمل دول أخرة تدخل ضمن النطاق السياسي والاستراتيجي.

الشكل 01: خريطة حوض البحر الأبيض المتوسط

المصدر https://www.google.com/maps/@35.3069773,30.1831644,4.25z/data=!5m1!1e4

3.دور النقل في الانتشار الثقافي والحضاري:

لا شك أن حركة الشعوب أفرادا او جماعات منذ بداية البشرية، تسيطر عليها دوافع مختلفة منها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وحتى الدينية، و ترتبط كثافة هذه الحركة بمدى توفر المسالك و الطرق من جهة ثم وسائل النقل من جهة ثانية، وإذا كانت البيئة قد أسهمت في توزيع الموارد الطبيعية بالأقاليم المختلفة، فإن امكانية استغلال هذه الموارد من طرف الانسان تتوقف على مدى تطور وسائل النقل وبنيتها التحتية، وما تأخرت الكثير من الأقاليم في استغلال مواردها الا نتيجة نقص خطوط النقل او انعدامها، كما أن للنقل دور بارز في توزيع السكان عل سطح الأرض على المستويين الإقليمي والعالمي، فلا يمكن لأحد اهمال دور النقل في ظهور الحضارات القديمة خاصة في مصر والصين وأراضي الرافدين. (رياض، 2018، 12) ومن جهة ثانية فإن تقدم وسائل النقل قديما قد ساعد على اتصال الحضارات

القديمة ببعضها البعض، الشيء الذي أسهم بدوره في تطور الفكر البشري وازدهار العلوم وتبادل الثقافات بين الشعوب، سواء تلك التي اخترقت الصحاري مثل الحضارات الأسيوية، أو تلك التي اخترقت البحار عن طريق الملاحة البحرية مثل الحضارة الفرعونية والفينيقية والاغريقية .(محمد، 2000، 20)

كما كان لتطور حركة الملاحة البحرية في القرن الخامس عشر دور كبير في الاكتشافات الجغرافية وإعادة توزيع سكان العالم بعد اكتشاف الأميركتين، حيث اندفعت موجات متتالية من سكان العالم القديم في أوروبا الى الأراضي الجديدة واختلاط العديد من الاجناس البشرية وبالتالي تلاقح الثقافات المتعددة. ولا شك أيضا أن تطور وسائل النقل كان له الدور الكبير في نشاط حركة الاستعمار الأوروبي في العالم منذ القرن 15، حيث كانت الحملات الاستعمارية بحرية في بدايتها بالنسبة للدول المالكة لأساطيل قوية مثل اسبانيا والبرتغال آنذاك، وسرعان ما أصبح التوغل داخل القارات بسبب تطور وسائل النقل (محمد، 2000، 20)

4. الخريطة الثقافية في حوض المتوسط

يشكل الموقع المتميز لمنطقة حوض المتوسط، محور تلاقي أربعة أبعاد واسعة ومترابطة بدءا بالبعد المتوسطي وامتداداته الأوروبية شمالا، فالبعد الإفريقي جنوبا، والبعد العربي والشرق أوسطي شرقا وامتداداته الأسيوية، والبعد الأطلسي غربا وامتداداته إلى أمريكا الجنوبية. وعلى ضوء هذه الأهمية الإستراتيجية للمنطقة، تقوم التفاعلات بين طرفين أساسين هما دول الضفة الشمالية للمتوسط متمثلة في المجموعة الأوروبية كتكتل إقليمي بثقافاته المتنوعة ودول جنوب المتوسط في تعايش ثقافي يغلب عليه الطابع العربي الاسلامي، في علاقات مبنية على المنطق النفعي.

و تأسيسا على كون الثقافة هي جميع السمات الروحية والمادية و الفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، من الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل أيضا الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات، والتي تجعل منها كائنات تتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية و القدرة على النقد والالتزام الأخلاقي، فإن خصوصية كل من الضفتين أصبحت تحكمها القدرة على التأثير المتبادل في ظل التنقل الكثيف للأشخاص و بشكل يأخذ اتجاها أحاديا بحكم الفجوة التنموية بين الشمال و الجنوب

ومع التطور الحاصل في وسائل و إمكانيات النقل المتوفرة أكثر من أي وقت مضى، مما أسس لفضاء متوسطي تتعدد فيه الثقافات بتعدد الشعوب و الدول المحيطة به، و تتنوع بتنوع العناصر المكونة لهذه الثقافات من منطقة إلى أخرى ، و لعل معايير التمييز بين الثقافات المختلفة للأمم تسمح الى حدما بتصنيف ثقافات المتوسط وفقما يلي: (محمد رشاد،2020، 365)

*تراث الامم المادي والروحي، المشكل لخصائصها وقيمها وصورتها الحضارية عبر العصور.

*السلوك والإبداع المتصل والمتطور والمثل العليا المشتركة المحركة للسلوك.

*الطموح المستقبلي وما يتم اتخاذه من أهداف إنسانية في تطلع للغد. وعليه تأسيسا على ذلك يمكن تقسيم ثقافات الحوض المتوسطي على النحو التالي:

1.4. الثقافة الأوروبية الغربية:

تتميز الثقافة الأوروبية بالتنوع، نظرا لتعدد الأعراق وتنوع التراث الفكري و التعدد اللغوي للشعوب الأوروبية، و رغم الاختلاف الجوهري بين الألمان والفرنسيين (القرنين 19م و 20م) ، حول مدلول كلمة ثقافة بين المفكرين والباحثين، حيث يعتبر فلاسفة ألمانيا أن التنوع الثقافي هو ثروة إنسانية، وأن لكل شعب ثقافته وعبقريته الوطنية، بينما يعتبر المنظور الفرنسي الثقافة قيمة عالمية، حيث يقول أرنست رينان: " قبل الثقافة الفرنسية و الألمانية والإيطالية هناك الثقافة الإنسانية " (محمد العربي،2007، 26)

وعلى الرغم من الإشعاع الحديث لثقافات ولغات غرب أوروبا، فإن الإتحاد الأوروبي يواجه مشكلة مكانة الفرنسية والألمانية والإسبانية والاضطرار للتعامل بالإنجليزية المدعومة بثقلها الأمريكي، وبالرغم من القبول مبدئيا والتنويه بالتعدد اللغوي في مؤسسات الإتحاد الأوروبي وخطابات الزعماء الأوروبيين، إلا أن الواقع العملي يبتعد أو يقترب من ذلك حسب مصالح الدول الأوروبية.

ومن أوجه الصراع الحاد بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية في الوقت الحاضر؛ الضجة التي قامت في فرنسا حول معهد باستور لاعتماده الإنجليزية كلغة بحث دون الفرنسية، فقد ثارت ثائرة العلماء والكتاب والصحافيين والسياسيين واعتبرالجميع هذا العمل خطير يهدد اللغة الفرنسية في عقر دارها .(بن نعمان،1996، 86)

إن السمة الأساسية للثقافات الأوروبية حب السيطرة والتفوق على الثقافات الأخرى، لأنها تربط الثقافة بالعرق وتقول بتفوقه، مما ينتج عنه من فوارق طبقية وثقافية. لذلك يرى ستروس (levis straus) أن تفوق الحضارة والثقافة الغربية يعود إلى جنس ولون وذكاء الأوروبيين.

يرى الدكتور أحمد بن نعمان في مؤلفه " الهوية الوطنية: الحقائق والمغالطات"؛ أن الوحدة الأوروبية قد تتحقق اقتصاديا وسياسيا، لكنها لن تتحقق أبدا من الناحية الثقافية. وستتحول الحدود السياسية الحالية إلى حدود ثقافية ولغوية. ذلك لأن عدد اللغات الأوروبية بعدد الدول، هذا بالإضافة إلى اللهجات المحلية. في هذا السياق تبرز إشكالية ذات طبيعة إجرائية مثلما يختص بالترجمة داخل مؤسسات الاتحاد الأوروبي. ومع وصول عدد أعضاء الإتحاد إلى 27 عضوا، تم إقرار 20 لغة رسمية للاتحاد، مما يتطلب إمكانيات مالية، بشرية، وتقنية، إلى غير ذلك من الصعوبات والمشاكل التي يطرحها هذا الوضع الجديد. و بالرغم من أن معاهدة ماستريخت تنص على احترام التنوع الثقافي واللغوي للشعوب الأوروبية إلا أن الواقع عكس ذلك، حيث تبقى اللغة الإنجليزية هي المسيطرة في المؤسسات الأوروبية (جاد الحق،2004، 94) . وهذا ما يعني طغيان لغة على لغات أخرى وبالتالي هيمنة ثقافة على ثقافات أخرى. مما يمثل تحديا لإمكانية احترام التنوع اللغوي والثقافي لكل دول الإتحاد الأوروبي.

2.4. الثقافة العربية الإسلامية:

يمثل الدين الإسلامي جوهر وأساس ثقافة الأمة العربية وهويتها، ورغم اختلاف العلماء والمفكرون في تحديد العلاقة بين الدين والثقافة إلا أن الدين مكون أساسي في الثقافة العربية والإسلامية، كما أن اللغة العربية مكون أساسي آخر في هذه الثقافة. في هذا السياق يقول الدكتور حسين مؤنس: " أن انتشار العربية كان نتيجة طبيعية لحاجة المسلمين الجدد لتعلم العربية وقواعدها قصد قراءة القرآن وحفظه، فأصبحت بذلك لغة الناس في كل البلاد والأمصار." (جاد الحق،2004، 55)

وبانتشار الإسلام واللغة العربية، أخذت الشعوب المستعربة تقاليد العرب وأخلاقهم وعاداتهم وأمثالهم وأساليب تفكيرهم، فأصبحوا مسلمين وعربا في نفس الوقت. هذا المشترك الديني واللغوي بين الدول

والشعوب العربية لم يستطع القيام بدوره في تجميع وتوحيد القوى العربية من أجل مشروع مجتمع حضاري عربي إسلامي.

إن ما يميز الساحة اللغوية والدينية العربية في البلاد العربية المتوسطية تعدد المذاهب والتيارات الإسلامية وتعدد اللهجات تتفاوت قربا وبعدا عن اللغة العربية، والتي أصبحت تنزع إلى الإفصاح عن ذاتها وخصوصيتها في بعض البلدان العربية كاللهجات الأمازيغية في بلاد المغرب العربي خاصة، كما تحتل لغة المستعمر مركزا مهما في المؤسسات والأسر العربية، فقد أصبح الدول العربية والإفريقية منطقة صراع بين اللغتين الفرنسية و الإنجليزية إدراكا من الدول الأوروبية والغربية لخطورة اللغة في التأثير على الأنظمة السياسية والثقافية (جاد الحق،2004، 86) .

5. أثر تنقل الافراد في تشكيل الثنائية الحضارية في حوض المتوسط:

لا شك أن التفاعل بين الشعوب في حوض المتوسط عن طريق التنقل تارة بأسلوب النشاط التجاري وتارة أخرى نتيجة الحملات الاستعارية، قد أسس لتواجد ثنائية حضارية في المنطقة هي الحضارة العربية الإسلامية في الضفة الجنوبية والحضارة الأوروبية الغربية في الضفة الشمالية كباقي عوامل التلاقح بين الحضارات عبر التاريخ، فقد أحصى أرنولد توينبي في دراساته التاريخية واحد وعشرين حضارة، نمت وتطورت على كوكب الأرض، يضاف إليها خمس حضارات بائدة. (توينبي،2004، 145)

1.5 .ظاهرة التنقل وتنامي حدود الحضارة العربية الإسلامية:

نشأت الحضارة الإسلامية في الرقعة الوسطى من القارات الثلاث التي تألف منها العالم القديم، واجتمع محصول العلوم الإنسانية كلها في هذه الرقعة المتوسطة من الكرة الأرضية، وتجمعت زبدة الثقافة الصينية والهندية والمصرية واليونانية الرومانية في ظل دولة واحدة، وقد تمركزت الحضارة العربية جنوب المتوسط وتمتد إلى شبه الجزيرة العربية، مستمدة عراقتها من التراث الثقافي والحضاري العربي والإسلامي الضارب جذوره في الأعماق. هذه المنطقة تميزت منذ القديم باستيطان شعوبا متعددة الأعراق، فبلاد الشام سكنها العرب والفينيقيون، ومصر عمرها المصريون القدامى (الفراعنة)، أما الأمازيغ فقد استوطنوا بلاد المغرب العربي،

وبمجيء الإسلام، و انتشاره في جميع أنحاء المعمورة، تعددت الهجرات العربية من الجزيرة العربية نحو مصر وبلاد الشام وصولا إلى شمال إفريقيا في بلاد المغرب العربي ، أين اختلط النسل العربي بالأمازيغي وسادت الحضارة العربية الإسلامية في هذه البلاد، ومن ثم انطلقت في مسيرتها نحو أوروبا، حيث شيد العرب المسلمون في الأندلس حضارة نهلت منها الأمم الأوروبية في القرون الذهبية للعرب الفاتحين. وفي ظل انغماس الأمراء العرب في الأندلس في اللهو والرفاهية والصراع على السلطة، قامت النهضة الأوروبية على أكتاف حضارة الأندلس، فغزت واستعمرت البلاد العربية جنوب المتوسط ونهبت ثرواتها واستعبدت شعوبها دهرا من الزمن. (السامرائي وآخرون ،2001، 215)

2.5. التنقل بين شعوب الضفتين وبناء الحضارة الأوروبية شمال المتوسط:

يؤكد روجي غارودي ان تراث العلوم العربية التي نشأت وتطورت في بغداد والأندلس، كانت الدعامة التي رفعت راية الحضارة الأوروبية حيث يقول:" إننا ندين للعلم العربي بأهم كلياتنا الطبية، وفي مقدمتها كلية مونبيليه." (السامرائي وآخرون ،2001، 58) ويضيف بول فاليري أن الحضارة الأوروبية الحديثة وليدة المسيحية في المجال الأخلاقي والديني، والقانون الروماني في مجال الحقوق السياسية والسياسة الدولية، والتقليد الإغريقي في حقل الفكر والفنون. (محمد إبراهيم، 2006، 57)

غير أن الدول الأوروبية لا تعترف بفضل الحضارة الإسلامية على تطورها، وتحتقر كل ما هو غير أوروبي أو غربي، وتعود جذور هذا الاحتقار للشعوب العربية والإسلامية إلى فلسفة وأفكار ونظريات عصر الأنوار في أوروبا حيث تعتبر الأنظمة الأوروبية أن استعمارها للشعوب الإفريقية والأمريكية في القرون الماضية كان مهمة حضارية (محمد إبراهيم، 2006، 35).

إن المبدأ الأخلاقي للحضارة الأوروبية هو السعي إلى المصلحة وإلى التأثير، فتظهر النفعية على أنها أحيانا مثالية وأحيانا أخرى واقعية، فليس هناك أصدقاء دائمون، إنما هناك مصالح دائمة، و من أجل الحفاظ على هذه المصالح تسعى الدول الأوروبية والغربية للسيطرة على المنظمات والمؤسسات الدولية، هذا ما يؤكده "صمويل هنتنجتون" في أطروحته عن صدام الحضارات حيث يقول أن الغرب بقيادة الولايات

المتحدة الأمريكية قد وصل إلى ذروة غير عادية في القوة وهو يسيطر على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية، حيث أن قرارات مجلس الأمن وصندوق النقد الدولي تعكس مصالح الدول الغربية.(جوماجيه، 2002، 71)

ومن جهة ثانية تزداد أهمية السوق في السياسة الدولية وفي المجتمعات الغربية، حيث أصبحت الصناعات الثقافية من صميم اهتمامات هذه الدول، هذه الأخيرة التي تدر أرباحا تقدر بالمليارات بالإضافة لما لها من تأثيرات سياسية، اجتماعية وثقافية كبيرة، فالغرب لا يرى في التجارة مجرد نشاط تجاري، ولكن يرى فيه قناة أساسية للاتصال وتبادل الآراء، الأفكار والقيم، كما أن استخدام التكنولوجيا المتقدمة في الإنتاج الثقافي وتوزيعه قد جعل من هذه السلع منتجات شيقة وجذابة ومنافسة.

ترتيبا على ما تقدم يمكن القول إن أهم ما يميز الحضارة الأوروبية الغربية هو طغيان الجانب المادي على الجانب الروحي وطغيان النفعية والمصلحة على المثالية والأخلاق. وعلى ذلك الأساس فإن الدول الأوروبية تستثمر كل إمكاناتها الثقافية والحضارية ومواردها البشرية والمادية من أجل إعلاء قيمها والحفاظ على مصالحها، وبالتالي السيطرة على العالم وقيادته.

6.المستقبل الحضاري لحوض البحر المتوسط في ظل تطور النقل وأشكال التنقل:

لقد فرض التطور الهائل في وسائل النقل المختلفة والمسالك المختلفة برا، بحرا وجوا واقعا يحكمه منطق التفوق لمن يملك تكنلوجيا النقل والتنقل، الى درجة أصبح العالم اليوم منكمش المسافات والمساحات، وتيسر الانتقال بسرعة غير معهودة سواء بالنسبة للأشخاص أو البضائع والمنتجات، كل ذلك أسس لشبكة كثيفة من العلاقات بين مختلف الوحدات في حوض المتوسط، حيث شهدت الألفية الثالثة سهولة انتقال حتى الأفكار السياسية المختلفة، وبالتالي فإن الانتقال بين الضفتين لم يعد ماديا فقط و لكن ايضا معنويا بامتياز، و امام هذا التطور المذهل في آليات التنقل وآلاته يمكن تصور سيناريوهات مختلفة لمستقبل التفاعل الثقافي و الحضاري بين ضفتي المتوسط يمكن تلخيصها في ما يلي:

1.6. سيناريو الهيمنة والسيطرة الأوروبية:

يفترض هذا السيناريو اعتماد المركزية الثقافية الغربية، وهي نظرية أوروبية لاتينية أساسها عرقي عنصري، كما أسلفنا سابقا عند استعراض سمات الثقافة الأوروبية، ينتج عنها الصراع بدل التعاون والتمايز بين الثقافات، وعلى أساسها تقسم وتصنف الثقافات إلى ثقافات متقدمة وأخرى متخلفة، وينتج عنها التقدم والتخلف، التمدن والتوحش، التحضر والبربرية. استخدمت هذه النظرية من طرف الاستعمار القديم والجديد ولا زالت تستخدم لحد الآن فيما يقره المركز من مبادئ ومعايير وقوانين وأنظمة، مع العمل على جعل الأنظمة والشعوب العربية تقبل بها رغبة ورهبة، عبر أدوات وقواعد العولمة، التي هي في حقيقة الأمر مركزة العالم حول الحضارة الغربية، وهذا النوع من المركزية الثقافية هو أشد وأخطر أنواع أدوات السيطرة والتحكم والتوجيه، حيث تقف هذه النظرية عقبة أمام تلاقح وتفاعل الثقافات الأوروبية مع الثقافات العربية والإسلامية، بالإضافة إلى الخوف الغربي من الإسلام (islamophobie) ومن انتشار ثقافة المهاجرين العرب والمسلمين في أوروبا، وفي ظل الدعم الأوروبي والأمريكي لإسرائيل والانحياز الكامل لها، يتزايد العداء بين أوروبا والدول العربية. وبالتالي تنكفئ الحضارتين على نفسيهما وتتجه نحو الصدام وفقا لما جاء في أطروحة صدام الحضارات لصاحبها صامويل هنتنغتون، رغم موجة سياسات التطبيع التي اعتمدتها بعض الوحدات السياسية العربية خلال الفترة الزمنية الأخيرة.

2.6. سيناريو الوحدة في إطار التنوع:

يتجه هذا السيناريو إلى الاعتراف بالقيم الخاصة لكل ثقافة وحضارة، مما يعني رفض المركزية الثقافية، فيكون بالتالي لكل شعب ثقافته الخاصة به، تجعله يتميز بها عن غيره، يستند هذا التحليل إلى نظرية نسبية الثقافة – من روادها المفكر الجزائري مالك بن نبي، والفرنسي روجي غارودي– والتي تعترف بالتنوع الثقافي في إطار الوحدة الإنسانية، مع جعلها للتعدد والاختلاف شرطا أساسيا من شروط التقدم والازدهار. والاختلاف والتنوع لديها غير مبني على العرق والتفوق العرقي، بل إن أساسه المعطيات التاريخية والاجتماعية

و في ظل المشاريع المطروحة على منطقة المتوسط، بداية من مسار برشلونة وانتهاء بالاتحاد من أجل المتوسط، والتي تهدف إلى جعل حوض المتوسط بحيرة للسلام، تنعم بالأمن والاستقرار والرفاهية، تبقى استجابة الدول العربية لهذه المشاريع يشوبها الشك والريبة، ولن يكتب لها النجاح إلا إذا وجدت القضية الفلسطينية سبيلا للحل من خلال مزيد من العمل العربي المشترك ونبذ الانقسام والفرقة بين الأشقاء، وانتهاج أساليب جديدة للتكامل العربي على أساس اقتصادي وثقافي، وقد بدت بوادر هذا التوجه من خلال انعقاد القمة الأخيرة لجامعة الدول العربية في الجزائر والاتفاق المبدئي على مجموعة من الأفكار التي قد تؤدي الى اذابة الجليد بين العلاقات البينية العربية مستقبلا، فإذا ما كتب النجاح لهذه التجربة التكاملية، تستطيع الدول العربية أن تدخل في التفاوض مع الدول الأوروبية من مركز قوة، في إطار الحوار المتكافئ وفي ظل هذه النية تتوحد الدول والشعوب المتوسطية حول مشاريع وبرامج مشتركة في إطار التنوع الثقافي والحضاري، يؤسس لمرحلة تتسم بطابع التعاون والتكامل في عالم أصبحت فيه التكتلات وسيلة لمواجهة التفوق النوعي في كل المجالات للعديد من التكتلات الإقليمية والدولية ولا مكان فيه للدول المنعزلة مهما بلغت قوتها.

3.6. سيناريو الحوار والتعاون:

إن أساس نظرية الحوار و التعاون هو المنهج القرآني، المستمد من النظرة القرآنية للعلاقات بين الناس والثقافات، وطريقة فهم الاختلاف بين الشعوب والقبائل والأمم، فالأصل في الخلق الاختلاف، هذا الاختلاف هو المحدد للتعارف ، مصداقا لقوله تعالى:" **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**".(**سورة الحجرات**، الآية 13) والتصوير القرآني هذا يتماشى والفطرة الإنسانية، لأنه مبني عل التعارف، ومن ثم فهو يتعارض مع النظرية المركزية ويقترب من النظرية النسبية يعتبر التعارف شرطا أساسيا، لفهم ومعرفة الآخر، قبل التعاون معه، كما يفهم منه أيضا التواصل الحضاري الذي يهدف إلى تحقيق السلم العالمي.

إن بناء السلم والأمن في العالم، لا يبنى فقط على الاتفاقيات السياسية والاقتصادية، كما هو جاري اليوم، لأن هذه الاتفاقيات لا تقوى على دفع الشعوب إلى الالتزام بها، لذلك تتجه الأفكار السياسية لما بعد الحداثة إلى التركيز على الثقافة كمتغير أساسي في السياسة الدولية. وذلك ما أكده ميثاق اليونسكو في ديباجته: " لما كانت الحروب تولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام ".

وباعتبار أن الاقتصاد هو الوجه المادي للثقافة، فإن نجاح المشاريع الاقتصادية المطروحة في حوض البحر المتوسط، سواء تلك القادمة من الشمال أو المأمولة من الجنوب، سيؤدي حتما إلى تفاعل ثقافي غزير، يساهم في تفاعل حضاري في كنف الاحترام المتبادل للقيم الثقافية للشعوب والامم المطلة على هذا البحر، وهو الهدف المنشود من وراء اتفاقيات الشراكة الأور ومتوسطية بمستويتها وأطرافها المختلفة.

7. الخاتمة:

اذا كانت مساحة البحر الأبيض المتوسط تشكل فاصلا طبيعيا بين ضفتيه فإن الحركية التي تمت و ما تزال بين شماله و جنوبه من قبل شعوبه المختلفة الأعراق، ولتي جسدتها آليات النقل و التنقل المختلفة الأشكال و المسالك قد استطاعت فعلا أن تجسد صورا من التفاعل عبر التاريخ كانت سببا في نشأة حضارات متعددة، لتكون بذلك منطقة إشعاع حضاري وثقافي مبني عل الحوار و التفاهم و احترام خصوصية الآخر، و لعل أكثر ما يجمع شعوب منطقة حوض البحر المتوسط كونها مهبطا للديات السماوية الثلاث: الإسلام، اليهودية و المسيحية ، الشيء الذي يجعل منها أكثر من فضاء جغرافي بل نقطة تلاقي حضاري، ثقافي و تاريخي تحكمه تارة علاقات حوار، تبادل تجاري و تعاون و تارة أخرى علاقات نزاع ناتج عن العدوان والاحتلال.

كما أن خصوصية البحر الأبيض المتوسط الجغرافية كونه يعتبر من اقصر الطرق البحرية بين الشرق و الغرب، قديما و حديثا من جهة وبين الشمال و الجنوب من جهة ثانية، جعل منه مصدرا هاما للتبادل التجاري و الثقافي ومن ثم محددا للخريطة الحضارية و الثقافية للمنطقة نتيجة موجات التنقل بين الضفتين

سواء بسبب الهجرات الطوعية أو القهرية، أو التنقل في اطار التنافس الاقتصادي و التجاري. وتأسيسا على ما سبق يمكن استنتاج ما يلي:

1. تتكون هذه الخريطة من حضارتين أساسيتين هما: الحضارة الأوروبية الغربية في شمال المتوسط، والحضارة العربية الإسلامية في جنوبه: الأولى متقدمة، استطاعت ان تحقق الهينة وتفرض على الثانية التبعية والانقياد.
2. تتعدد وتتنوع وتتباين عناصر ومكونات الخريطة الثقافية لحوض المتوسط بتعدد واختلاف الشعوب والدول المكونة لهذه المنطقة من العالم، وإن أهم ما يميز هذا التنوع في الثقافة الأوروبية هو التعدد اللغوي والثقافي في أوروبا والاختلاف الفكري والفلسفي لمفهوم الثقافة والحضارة بين الثقافات المهيمنة على الساحة الأوروبية.
3. تعتمد الحضارة الغربية في نشر قيمها على مبادئ الواقعية، والمصلحة، وعلى أدوات الدبلوماسية التجارية مستفيدة من أدوات العولمة ومن تكنولوجيات العلوم والاتصال، بينما تبقى الحضارة العربية جنوب المتوسط حبيسة إشكاليات الأصالة والمعاصرة ونظرية المؤامرة وفي موقف الدفاع، متأثرة بالنموذج الغربي نتيجة انتقال الأفكار والقيم الغربية مما يجعل من الشعوب العربية مستهلكة لكل السلع والخدمات والأفكار والنظريات الغربية.
4. تتسم الثقافة العربية في الوقت الحاضر بعدم الانسجام رغم ما يجمع بينها من عناصر مشتركة في الدين واللغة، التاريخ، العادات والتقاليد، وأصبحت الساحة الثقافية العربية تعج بالمتناقضات بسبب تعدد المذاهب والتيارات الدينية وبسبب الاختراق الثقافي الأوروبي لها و لم ترقى الى مستوى التأثير في ثقافة الشمال رغم موجات الهجرة و التنقل من جنوب المتوسط.

5. قائمة المراجع:

1–القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية 13.

2–السيد عدنان، العلاقات الدولية في الإسلام. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبقة الأولى، 2006،

3–أسامة فاروق مخيمر، " تعريف الدول المتوسطية: دراسة للخصائص الاجتماعية والاقتصادية «. السياسة الدولية، العدد 129، 1997 .

5–سمير، صارم، أوروبا والعرب من الحوار الى الشراكة دمشق: دار الفكر، ط1، 2000،

6–عبد الرحمان، تومي «الاستثمار الاجنبي المباشر في منطقة تبادل حر أورو–متوسطية" مقال منشور في مجلة دراسات اقتصادية، العدد 10

7 –محمد رياض، جغرافيا النقل، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2018، ص ص 10–12 .

8–محمد خميس الزوكة، جغرافية النقل، دار المعرفة الجامعية، 2000.

9–عبد الناصر محمد رشاد، محمود المهدي سالم، التنوع الثقافي وآليات تعزيزه بالتعليم قبل الجامعي في العالم المعاصر، مجلة كلية التربية، العدد يناير، 2020.

10-ولد خليفة، محمد العربي، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. الجزائرية: منشورات تالة، 2007.

11-أحمد، بن نعمان، الهوية الوطنية (حقائق ومغالطات). الجزائر: دار الأمة، 1996.

12- فريدة جاد الحق،" الهوية الثقافية الأوروبية: رؤى جدلية "، مجلة السياسة الدولية. العدد 157، يوليو،2004 .

13- توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية، ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

14- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

15- الفيومي، محمد إبراهيم، إشكالية التحدي الحضاري بين الإسلام والغرب. القاهرة: دار الفكر العربي، ط1، 2006

16- جوماجيه،" الحضارة الغربية: جوهرها وملامحها وتأثيراتها"، مجلة السياسة الدولية. العدد149، جويلية2002.